الجامعة المستنصرية المرحلة الأولى/الدراسة الصباحية

كلية الآداب المادة : علوم القرآن

قسم اللغة العربية الدكتور إسماعيل عباس حسين

المحاضرة الخامسة عشرة (الإعجاز القرآني)

الإعجاز القرآني، هو أحد المباحث القرآنية الأساسية المدرجة ضمن علوم القرآن والتي يسلّط فيها الضوء على البعد الإعجازي في القرآن الكريم، إضافة إلى الإشكالات المثارة وتفنيدها، ولقد أرسل الله تعالى الرسل -عليهم السلام‌- لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور وأمدهم بالمعجزات تأييداً لهم وتصديقاً لنبوتهم. ومعجزات الأنبياء الذين جاؤوا قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانت جلها معجزات حسية ومادية، فقد كانت تأتي وفقاً لأوضاعهم وأقوامهم، وأعرافهم وما اشتهروا به، وينتهي وقوعها بانتهاء زمنهم، ولا تكون حجة إلا على من شاهدها أو وصلت إليه بالتواتر لذلك فقد كانت خاصة بزمان ومكان وقوم معينين.

ولفظة الإعجاز مشتقة من (عجز) عن الشيء يعجز عجزاً، فهو عاجز، أي ضعيف، وأعجزه: جعله عاجزاً، وهو معجز، و المعجز أمر خارق للعادة. ومن هنا أُطلقت في الثقافة الإسلامية مفردة المعجزة على القرآن الكريم كأبرز معاجز النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ علماً أن من مميزات القرآن الكريم أنّه ضم إلى بعده الإعجازي كونه كتاب شريعة وقانون وأنّه كتاب يدل على صدق ذاته بذاته. وقد تجلى ذلك الإعجاز في صور متعددة منها: الإعجاز البياني، والإعجاز العلمي ، والإعجاز التاريخي .

الإعجاز البياني في القرآن : لقد تحدى الله تعالى الإنس والجن في مراحل بالقرآن الكريم: لقد كان منهج القرآن الكريم في تقرير عجز الإنس والجن بأن تحداهم على ثلاث مراحل: التحدي بالقرآن الكريم كله, والتحدي بعشر سور, والتحدي بسورة واحدة.

إنّ مفردة الإعجاز لم ترد في القرآن الكريم ولكن يوجد في مطاوي الآيات ما يشير الى البعد الإعجازي للقرآن الكريم، ففي الوقت الذي نسب فيه المشركون القرآن إلى السحر تارة وإلى صنع البشر تارة أخرى كما حكى القرآن الكريم ذلك عنهم ﴿إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، و ﴿إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، وزعموا أنّهم قادرون على الإتيان بمثله لو شاءوا ذلك ﴿وَإِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطيرُ الْأَوَّلين﴾، فردّ عليهم القرآن الكريم رافضا مزاعمهم ومؤكدا على أنهم أعجز من أن يباروا كتابا أنزله الحق المطلق والقدرة اللامتناهية ﴿أمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ \* فَلْيَأْتُوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقينَ﴾ بل دعاهم في منازلة وتحدٍّ صارم إلى أن يأتوا ولو بجزء يسير منه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات﴾ بل طالبهم زيادة في التحدّي بالإتيان ولو بسورة واحدة ﴿فاتوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقي﴾. ثم وسع تحدّيه لهم بأنهم عاجزون عن ذلك الآن وغداً وفي مستقبل الأيام ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتي‏ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرينَ﴾.

وهذا التحدّي يكشف عن عجز الكافرين وضعفهم وهو المراد من مفهوم الإعجاز المصطلح في الفكر الإسلامي. أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى الخالدة الدالة على صدق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .ونظرية النظم القرآني تعدّ نظرية رصانة البيان واستحكام التأليف والترصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم، من أبرز النظريات المطروحة في وجه الإعجاز القرآني، ومن أبرز الذاهبين إلى هذه النظرية والمبينين لأبعادها الأديب والمتكلم المعتزلي عمرو بن بحر الجاحظ .فقد بيّن في كتابه المفقود «نظم القرآن» أبعاد تلك النظريات التي أشار إليها في سائر كتبه وخلاصتها أن النظم والترصيف القرآني خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم، ومن هنا عجز البشر عن الإتيان بمثله على مرّ التاريخ.

وكان للنظرية حظّ وافر في نتاجات بعض الأدباء كأبي هلال العسكري الذي سلّط الأضواء على أبعادها وتفريعاتها لما لها من علاقة بالإعجاز القرآني، مشيرا في مقدمة كتابه إلى أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها.

وجاء بعد الجاحظ وأبي هلال العسكري عبد القاهر الجرجاني الذي تعدّ مصنفاته البلاغية نقطة انعطاف في بيان الإعجاز القرآني، وهذا ما يمكن رصده في كتابه دلائل الإعجاز الذي أكد فيه– بعد التأصيل للنظرية- على رجوع الإعجاز القرآني إلى الأبعاد البلاغية فيه ومن هنا اقتضت الحاجة لديه للبحث في وجوه الفصاحة والبلاغة وبيان أنواع النظم متوجا ذلك في كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة بالإضافة إلى عصارة أفكاره التي أوردها في الرسالة الشافية.

الإعجاز العلمي في القرآن: هو إخبار القرآن الكريم بحقيقةٍ علمية مشهودةٍ, ثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد وردت في معرض دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان بعض الإشارات العلمية التي بدأت تتكشف للناس نتيجة للتقدم

العلمي الحديث، وقد أظهرت الاكتشافات العلمية المعاصرة دقة هذه الإشارات مع أن العلوم كانت متخلفة عما نحن عليه في الوقت الحاضر، والنبي محمد أمي لا يقرأ ولا يكتب فضلا عن عدم معرفته بمثل هذه الاكتشافات، وهذا ما زاد المؤمنين إيمانا بأن هذه القرآن من عند الله، ولم تتعارض حقائق العلم المكتشفة مع آيات القرآن الكريم، لأن كلام الله، وصنعه لا يتصادمان أبدا بل يصدق أحدهما الآخر لأن مصدرهما واحد.

أطوار الجنين - لقد جاء القرآن الكريم بحقائق عن خلق الإنسان لم تكون البشرية قد عرفتها من قبل، ولم تكون متاحةٌ للنبي محمد وإنما اكتشفها التقدم العلمي بعد ذلك، فحتى عندما ذكرها أرسطو ذكر أطوار الجنين بشكل مخالف لما ذكر في القرآن، ومن أهم هذه الحقائق تقرير أن خلق الإنسان لم يكن دفعة واحدةٌ كما قال الأقدمين، وإنما يمر بمراحل مختلفة يتدرج فيها الجنين البشري من النطفة إلى تكون العظام ثم إكساء العظام باللحم ثم اكتمال الخلق.

حركة الشمس وجريانها - قال تعالى:(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (38) سورة (يس) وقد اشار علماء التفسير استنباطاً من الآيات القرآنية أن الشمس كالأرض وغيرها من الكواكب: هي في حالة حركة وسبح دائم في مدار خاص بها، وقد بين القرآن أن هذا الجريان يصل بالشمس إلى مستقر محدد ومعين، وهذا ما توصل إليه علماء الفلك والطبيعة، فأثبت العلم الحديث أن الشمس وتوابعها من الكواكب تجري في مدارات خاصة بها في نظام دقيق وأن الشمس تدور حول نفسها وحول المجرة وحول المجموعة المجرية وتجري في الكون نحو نقطة محددة في المجموعة المجرية.

الإعجاز التاريخي : من أوجه إعجاز القرآن الكريم، مثل قصة نوح عليه السلام، وذكر اسم هامان في القرآن هتمَّ القرآن الكريم بسرد تاريخ الأمم السابقة؛ إمعانًا في تحديه للمعارضين له؛ فيُخْبِرُ عن حياة أُنَاس عاشوا من آلاف السنين بصورة مُوَثَّقة، وبِدِقَّة متناهية، لا يَصِلُ إليها المؤرِّخون مهما أُوتوا من أدلَّة مادِّيَّة. وقد نوَّع القرآن الكريم في عرض تاريخ الأمم السابقة، وأوضح أن الحكمة من هذه القصص أكبر أَثَرًا، وأشمل حكمة من مجرَّد التسلية ومَلْءِ الفراغ؛ لذا قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف:111].

قصة نوح - فلنتأمَّل قصة نوح على سبيل المثال؛ وقد جاءت مفصَّلة - بداية من دعوته لقومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، ومرورًا برحلة التكذيب الكبيرة التي قادها كبراء قومه، وكذلك قلَّة المؤمنين به، وصناعة السفينة، وركوب المؤمنين، وقصة الطوفان العظيم، وغرق ابنه وزوجته، واستقرار الأمر بعد ذلك لنوح ومن آمن معه - كيف علم رسول الله كل هذه التفاصيل التي جاءت أطراف منها في كتب أهل الكتاب، ولم تأتِ أطراف أخرى منها، ولكن رسول الله محمدًا أخبر بها على وجه اليقين؛ لذلك يختم ربنا قصة نوح بقوله: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: 49]. فهذا التاريخ المُحْكَم في قصَّة من جملة قصص القرآن الكريم؛ يُدَلِّل على أنَّ القرآن الكريم مُعْجِزٌ في توثيقه التاريخي، ويُبنى عليه فائدة تقوم على تأديب النفوس، وسياسة الجماعات.

اسم هامان في القرآن - ومن الأمثلة الواضحة على الإعجاز التاريخي في القرآن ذِكْرُ اسم هامان في القرآن الكريم متَّصلاً باسم فرعون موسى، وكشخصٍ من المقرَّبين إليه، قال تعالى على لسان فرعون: {فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص: 38]، وتُخَالِف صورة هامان في القرآن الكريم الصورة التي ظهر بها في أحد كتب العهد القديم ؛ حيث ظهر كمساعد لملك بابل (في العراق)، وأوقع الضرر الكبير بالإسرائيليين، وقد حدث هذا بعد سيدنا موسى بحوالي ألف ومائة سنة، وقد أثبتت الاكتشافات الفرعونية صحَّة ما جاء به القرآن الكريم؛ فمن خلال الكتابات والنقوش الهيروغليفيَّة تمَّ التعرُّف على معلومة مهمَّة جدًّا، وهي أنَّ اسم هامان ورد فعلاً في الكتابات المصريَّة القديمة؛ حيث يوجد اسمه على حجر موجود حاليًا في متحف هوف بفيينا، كما ورد اسمه كذلك في الألواح والأحجار المصرية، وظهرت وظيفته وأنه كان مسئولاً عن عمال مقالع الأحجار.

لقب ملك على حاكم مصر في عهد يوسف - ومن إعجاز القرآن التاريخي كذلك أنه أَطلق لقب (مَلِك) على حاكم مصر في عهد يوسف ، فقال تعالى: {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ...} [يوسف: 43]. بينما أطلقت التوراة على نفس الحاكم لقب فرعون، والسبب في عدم إطلاق القرآن لقب فرعون على حاكم في مصر في عهد يوسف أن لقب - فرعون - لم يكن يُطْلَقُ على حاكم مصر نفسه في ذلك العصر، بل كان يعني (القصر الملكي)، ولم يبدأ إطلاق هذا اللقب على حاكم مصر إلاَّ بعد عصر يوسف بما لا يقلُّ عن مائتي سنة ، وهكذا ففي العصر الذي عاش فيه موسى كان لقب (فرعون) يُطْلَقُ على حاكم مصر، وبذلك يتجلَّى الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم، الذي كان دقيقًا حين لم يستخدم لقب (فرعون) إلاَّ مع حاكم مصر في عهد سيدنا موسى، في حين عمَّمت التوراة استخدام لقب فرعون على حاكم مصر في عصر كلٍّ من إبراهيم ويوسف وموسى، رغم أنَّ المصريين لم يستخدموه للدلالة على حاكم مصر في الزمن الذي عاش فيه كلٌّ من إبراهيم ويوسف.

ونختم بمقولة رائعة للفخر الرازي يقول فيها: "إن هذه القصص دالَّةٌ على نُبُوَّة محمد عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كان أُمِّيًّا وما طَالَعَ كتابًا ولا تَلْمَذَ أستاذًا، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ؛ دَلَّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يَدُلُّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ.